الشهيد القادم: سباق الحرب ونتائج لجنة التحقيق

سلمان قعفراني

الزلزال الوجداني الذي ضرب اللبنانيين وشعوب المنطقة وأنظمتها بعد عملية الاغتيال الهمجية للرئيس رفيق الحريري وأدى إلى انسحاب متواصل وسريع للقوات العسكرية السورية وأجهزة مخابراتها فاجأ جميع الأطراف في لبنان والعالم العربي وفتح الباب عريضا على كل الاحتمالات.

جانب المفاجأة الأساسي انكشف لمحترفي السياسة الصغار بعد اغتيال الرجل الكبير عندما تبين مدى حجم الاحترام والقبول والثقة التي حظي بها الرئيس الحريري في المحافل الدولية ولدى قادة العالم، وهو شرف لم يحظ به أي زعيم عربي أو مسلم من قبل.

وجانب المفاجأة الآخر هو الإجماع العربي والدولي على إدانة عملية اغتيال الرئيس الشهيد والمطالبة الفعلية بكشف المجرمين والإصرار على سوقهم ومحاكمتهم أمام العدالة. وزاد من وقع المفاجأة وصف مجلس الأمن عملية الاغتيال بالعمل الإرهابي وتشكيل لجنة تحقيق دولية وإعطاؤها مهلة زمنية محددة لكشف الحقيقة التي كاد ينساها اللبنانيون لفرط انشغالاتهم المميتة بمعاركهم الداخلية الصغيرة.

وكان من نتائج كل ذلك ان وضع لبنان تحت مجهر الوصاية الدولية ورحمها، ورغبت كل من فرنسا والولايات المتحدة تعجيل تنفيذ بقية بنود القرار 1559 الذي أحدث شرخا داخليا سرعان ما تبينت مخاطره على الوضع الداخلي والإقليمي على السواء.

وقبل أن يلتقط اللبنانيون أنفاسهم بعد حفلات الفولكلور السياسية والإعلامية التي استنزفتهم بسرعة ولم يبق لديهم ما يتباهون به ويفاخرون، داهمهم الاستحقاق النيابي من ناحية وإصرار الدول الكبرى على إجرائه في مواعيده المحددة دون تأجيل أو تأخير من ناحية ثانية.

ولما تبين أن الانتخابات هي مطلب دولي صريح وحازم وان اجراءها بأي شكل وبأي ثمن هو أمر لا مرد منه ولا مفر، رغم معرفة دول الوصاية بالخلافات والانشقاقات العميقة التي تعصف باللبنانيين حول قانون الانتخاب نفسه، ولما تبين أن الإصرار الدولي والعزيمة الدولية لا يكترثان بمن سيفوز في الندوة النيابية، ولا يباليان بتوجهات النواب السياسية وأفكارهم، سارعت الأطراف اللبنانية المتصارعة الى إعادة رسم صورة تحالفاتها على قواسم الحد الأدنى في انتظار المرحلة المقبلة الجديدة التي تزخر بالقرارات الكبيرة على الصعيدين الداخلي والخارجي على السواء.

لم تكترث دول الوصاية بالغبن الذي عبر عنه بعض الأطراف اللبنانية من جراء إقرار قانون الانتخاب، ولم تبالِ باستيائهم الذي وصل إلى حد الاستعانة بالخطاب الطائفي الصريح والإنذار والتهديد. فالحرب كما يقال ممنوعة، وهي خط احمر وعلى الجميع تدبر أمورهم على عجل وانتظار ما سيتقرر لاحقا.

مقابل كل ذلك لم تحصل تغييرات كبيرة على صعيد السلطة ومؤسسات الدولة في لبنان. فالتغييرات البطيئة والخجولة التي طاولت بعض الأجهزة الأمنية، وتشكيل وزارة لا تحمل جديدا إلا موافقتها على تسهيل عمل لجنة التحقيق الدولية، لا تترك مجالا للشك في ان الوضع الداخلي اللبناني لا يتحمل حاليا أكثر من ذلك.

أما على صعيد الجمهور فقد كشف الخطاب السياسي العام عن عمق الهوة التي تفصل اللبنانيين عن بعضهم البعض. فإذا ما تركنا جانبا شعارات التمجيد الذاتي وهتافات النقاوة الوطنية فان الاصطفاف الطائفي والمناطقي على أشده بين الأطراف المتنازعة. ولحسن الحظ فإن جميع الافرقاء مقتنعون بان مسألة العنف والسلاح غير مسموح بهما في لبنان، وان ضمانة الاستقرار الوحيدة لا تكمن في ضمائر اللبنانيين ووعيهم وحماستهم المخملية، بقدر ما تكمن في أخلاقيات الوصاية الدولية ومصالحها.

لكن ذلك أيضا لا يشكل ضمانة أكيدة، فكل المسائل التي تشغل بال اللبنانيين هي مسائل خلافية: السياسة الداخلية والخارجية، اتفاق الطائف، القرار 1559، مسألة اللاجئين الفلسطينيين، سلاح المقاومة الخ. إنما أمور مكشوفة ويستطيع أي كان إثارتها واللعب عليها وشق صفوف اللبنانيين، إذ لا يكفي سبع هنا أو هناك. ففي الغابة سباع واسود وغربان وبنات آوى وكل منهم يدافع عن نفسه حتى "الشهادة".

في هذه الأجواء المشحونة بالانتظار قامت تحالفات بين تكتلات سياسية كبيرة ارتضت لما سقف الطائف كحد أقصى في المرحلة الراهنة. وكان تحالف الأقطاب المسلمين الأربعة والممثلين لتكتلات جماهيرية ضخمة وشرسة في غالبيتها (تيار المستقبل، حركة أمل، حزب الله والحزب الاشتراكي) نوعا من الضمانة لعدم الوقوع في حالة الشرذمة والتفتت التي وقعت بها الأطراف المسيحية وبعض الأصوات الإسلامية المعارضة اليسارية وغيرها. لكن دور هذا التحالف يذهب إلى ابعد من ذلك؛ فهو قادر على لملمة الحشود وضبط الشارع والإمساك به وعدم السماح بزرع البلبلة والفوضى.

وتسعى جميع الأطراف لاعادة تمركزها في أجهزة الدولة ومؤسساتها وتشكيل لبنان "الجديد"، وتعلم جيدا ان المهمة الوحيدة التي تقع على عاتقها هي حماية لجنة التحقيق والتعاون معها. لكن من جرؤ على التفكير بقتل الرئيس رفيق الحريري وقام بالتنفيذ لا مصلحة له في حصول أي استقرار من أي نوع كان، وهو لن يتوانى عن القيام بأية فاحشة. فهو على دراية بتعقيدات الوضع اللبناني ونقاط ضعفه الكبيرة والكثيرة، وعلى علم بجشع اللبنانيين وهوسهم بالسلطة. وسواء فاجأت ردود الفعل قتلة الشهيد الحريري أم لم تفاجئهم، فهم لن يستسلموا بالتأكيد لمجرد وجود لجنة التحقيق الدولية بل سيحاولون الاستبسال للدفاع عن أنفسهم والحفاظ عليها. فلا احد يقبل بان يكون متهما وان يساق إلى العدالة ويحاكم، فكيف إذا كانت التهمة تتعلق بالإرهاب وبمحكمة العدل الدولية!!!

وبناء على ذلك فان خط الدفاع الأخير للمجرمين المتهمين باغتيال الشهيد رفيق الحريري يتلخص بأمر واحد، هو إفشال عمل لجنة التحقيق الدولية ومنعها من القيام بمهماتها في لبنان أو... إكمالها، و هذا الأمر لا يتحقق إلا من خلال إشعال نار الفتنة والحرب. لكن دون ذلك موانع عديدة، أهمها على الإطلاق التوافق الكامل بين جميع القيادات اللبنانية على ضبط الشارع ورفض تفلت الجماهير من أية جهة كانت وتقنين حماسته وعدم الانجرار للفوضى والعنف.

لم يتأخر رد قتلة الشهيد الحريري، فالمتفجرات التي زرعت في المناطق المسيحية لم تفلح في زعزعة الوضع الأمني وزرع الفوضى، أو تغير المنحى الجديد للسياسة اللبنانية في تعاطيها مع لجنة التحقيق. واغتيال المفكرين الشباب وشرفاء الوطن أمثال سمير قصير لم يقلب الأوضاع رأسا على عقب، ولم يغير من الوضع شيئا، لان اسشهاد سمير قصير لا يخيف عامة اللبنانيين، ولان الأمور كما يقال "ممسوكة"، وأبعاد الخطة الإجرامية أصبحت مكشوفة. فما الذي يغير كل المعادلات ويرمي الجميع في أتون الحرب؟

قتلة الشهيد الحريري لن يتوانوا عن قتل غيره إذا كان ذلك كفيلاً بإفشال لجنة التحقيق. لذا فلا شيء يشير إلى توقف الاغتيالات طالما ان لجنة التحقيق مستمرة في عملها وتحظى بالتعاون. لكن الاغتيال القادم لن يكون رسالة، بل أكثر من ذلك، ومن هم عرضة له هم زعماء التحالف الرباعي والبطريرك صفير الذين يحفظون للبنان استقراره الحالي في هذه المرحلة الانتقالية، لان اغتيالهم هو الوسيلة الكفيلة بتعميم الفوضى وإشعال الحرب وطرد لجنة التحقيق.

فـ"حزب الله" قادر على تجديد زعامته واستبدال قيادته دون أن تقع جماهيره في أي فراغ إذا حصل ما لا يرغب به احد، والحزب الاشتراكي إذ ما فقد زعيمه، قادر مع حلفائه على تحمل متاعب الجمهور الدرزي وشغبه وردود فعله في أماكن تواجده الجغرافية المحدودة، بينما لا تستطيع أية قيادة بديلة من "تيار المستقبل" و"حركة أمل" والبطريركية من ضبط الشارع السني أو الشيعي أو المسيحي وتشرذمه وتفلته إذا ما تعرض أي من قادتها للاغتيال. ولا يشك عاقل من ان ما سيحدث سيكون أكثر بشاعة وهمجية مما حصل حتى الآن، والأنموذج العراقي في "الاستشهاد" ليس بعيدا عنا. لذا فالاحتياط واجب، وهو واجب وطني مقدس، خلال فترة السباق بين الحرب ونتائج التحقيق.

أستاذ في الجامعة اللبنانية

سمير قصير في "الغارديان"

جولي فلينت

فقد لبنان برحيل سمير قصير، الذي قُتل عن 45 عاماً في انفجار عبوة بسيّارته، أبرز صحافييه وناشطيه المدافعين عن الديموقراطية. وانتزع هذا الموت أيضاً من اللبنانيين الاعتقاد الذي ساد في أوساطهم، وكان قصير يشاطرهم ايّاه، بأنّ اغتيال رئيس الوزراء السابق، رفيق الحريري، طبع نهاية سلسلة من الجرائم ارتُكِبت في ظلّ الاحتلال السوري. والأسى الآن مضاعف – على رجل وعلى بلد يتوقّع الأسوأ.

نُشر مقال قصير الأخير في 27 أيار في صحيفة "النهار" حيث دَرَجَ على كتابة عمود أسبوعي في الصفحة الأولى في السنوات السبع الماضية. وانتقد في هذا المقال بعنوان "الخطأ بعد الخطأ"، في أسلوب مشاكس تميّز به، قمعاً جديداً للمصلحين في سوريا.

بعد ستة أيام، انفجرت عبوة تحت سيارته بينما كان يغادر متّجهاً إلى عمله فقضى على الفور. ألقت الغالبيّة اللوم في الهجوم الذي وقع في قلب بيروت، على الأجهزة الأمنية السورية ومستنسخاتها اللبنانية – السرطان الذي كان سمير قصير يعتبر أنّه في عمق التململ الذي تعيشه المنطقة والذي كان، خلافاً لكثر، يسمّيه بدون خوف.

على الرغم من أنّ قصير كان في شكل أساسي رجل اقتناعات سياسية لا أحزاب، كان أحد مؤسّسي "حركة اليسار الديموقراطي" التي ساعدت في تنظيم التظاهرات الشعبية التي أرغمت الجيش السوري على الانسحاب من لبنان في نيسان الماضي. اعتبر أنّ الانسحاب السوري هو بداية جديدة لبلاده وكان واثقاً من أنّ عملاء الاستخبارات المتبقّين أصبحوا من دون أسنان. وقد كتب في هذا الإطار "لا يمكنهم اعتقال الأشخاص ولا تعذيبهم ولا اختطافهم. يمكنهم أن يخرّبوا قليلا لكن ليس أكثر".

على الرغم من تجربته الصحافيّة المهمّة، كان سمير قصير باحثا في الصميم – مؤرّخاً وأستاذاً اعتبر أنّه لا أمن بدون حرّية ولا أمل بشرق أوسط ليبرالي بدون تغيير كبير في الغرب. قال في مقابلة مع مجلة "ريزون" العام الفائت "إذا لم يكن بالإمكان بناء شرق أوسط ليبرالي، فلن يتحمّل العلمانيون أمثالنا الوضع. أنا مقتنع بأنّ هذا ممكن لكن في ظلّ ظروف معيّنة". وتابع "كي يكون هذا ممكناً، يجب أن يكون الغرب الليبرالي ليبرالياً أيضاً في الشرق الأوسط. يجب أن يتخلّى عن دعمه للديكتاتوريات، حتى تلك التي تُعتبر معتدلة وحليفة. والأهمّ من ذلك أنّه ينبغي على الغرب أن يقبل أنّ الأهمية الاستراتيجية للشرق الأوسط يجب ألا تبرّر حرمان شعوبه حقّ تقرير المصير، وهذا يعني الفلسطينيين في شكل خاص".

كانت فلسطين والإصلاح الديموقراطي في سوريا ولبنان حرّ من الوصاية السورية القضايا العزيزة على قلب قصير. كانت مبنيّة على القيم لكنّها كانت تعكس أيضاً تاريخه الشخصي كابن لوالد سوري ووالدة فلسطينية هاجرا إلى فلسطين قبل أن يستقرّا في بيروت عام 1948.

كان فرنسيّ الثقافة، فقد تلقّى علومه في مدرسة الليسيه الفرنسية في بيروت وجامعة السوربون في باريس حيث نال شهادة دكتوراه في تاريخ الشرق الأوسط وشهادة دراسات عليا في الفلسفة السياسية. بدأ حياته الصحافية في الصحافة اللبنانية الصادرة باللغة الفرنسية وتحديداً في صحيفة "لوريان لو جور" عام 1977.

كتب من 1981 إلى 2000 في "لو موند ديبلوماتيك" وكان بين 1998 و2000 رئيس تحرير نشرتها العربية. كان عضواً في مجلس تحرير "مجلة الدراسات الفلسطينية" من 1986 إلى 1994. وعام 1995، أصبح رئيس تحرير "أوريان إكسبرس" المجلة الشهرية السياسية والثقافية التي اكتسبت سمعة رائعة طوال سنوات صدورها الثلاث.

ووضع قصير أيضاً عدداً كبيراً من الأبحاث وأربعة كتب حول المنطقة بينما كتاب من جزئين عن دور فرنسا في الصراع العربي الإسرائيلي وكتاب رائع عن تاريخ بيروت، وهي مدينة أحبّها أكثر من أيّ مدينة أخرى، لحيويّتها وليبراليّتها وتنوّعها الثقافي. وكان محاضراً بدوام جزئي في جامعة القديس يوسف في بيروت، يكمل محاضراته بعد انتهاء الحصص الدراسية في مطعم صغير مجاور.

كان قصير راسخاً في معتقداته غير قابل للإفساد. لم يتزعزع يوماً دعمه لحركة "فتح" ياسر عرفات ولا لاتفاقات السلام في أوسلو حتى في أحلك أيام عرفات. احتقر "الخطوط الحمر" التي احترمها معظم زملائه وكان معتاداً على الاهتمام غير المرغوب فيه من المخابرات. عام 2001، بعد كتابة مقال هاجم فيه رأس الاستخبارات اللبنانية، صودر جواز سفره وتعرّض للملاحقة على مدار الساعة طوال أربعين يوماً. واستمرّوا بعد ذلك في مراقبته وتهديده.

لم يكن ليحبّ أن يوصف، كما يحصل أخيراً، بـ"المعادي لسوريا". فهو أحبّ سوريا بقدر ما كره نظامها، وبذل جهداً كبيراً لجعل اللبنانيين الذين غالباً ما تجاهلوا هذا الفرق، يميّزون بين الاثنين. وقد جوبه موقفه هذا بصيحات استهجان من المتظاهرين الشبّان في أيام الغضب التي أعقبت اغتيال الحريري لكنّه ردّ عليهم بكلّ حماسة "لم تستطع المخابرات إسكاتي، وأنتم أيضاً لن تتمكّنوا من ذلك".

ترك زوجة، جيزيل، وابنتَين من زواجه الأوّل، ميساء، 20 عاماً وليانا، 16 عاماً.

ترجمة نسرين ناضر

مراسلة سابقة لصحيفة "الغارديان" البريطانية في الشرق الأوسط، تعمل حاليا صحافيّة مستقلة

استشهاده لم يذهب سُدىً...

الياس حنّا

عجيب امر هذا الانسان المُعقد جدا في تركيبته. فهو يضطهد انبياءه، ومن ثم يعود لتكريمهم بعد مماتهم- استشهادهم. رفض اليهود السيد المسيح، فصلبوه. انتشرت رسالته لتعم العالم، وبقي اليهود اقلية. عندما انزل الله عز وجل قرآنه الكريم على النبي محمد (صلعم)، تكتلت ضده كل القبائل. لكنه عاد وانتصر في نشر رسالته. عندما دافع غاليليو عن نظرياته حول شكل الارض على انها كروية، وتدور حول الشمس، وذلك بعكس اعتقاد الكنيسة ان الارض مُسطحة، اتهمته الكنيسة بالالحاد. وطلبت منه ان ينكر ما كتب وهو جاث على ركبتيه. لكنه عندما وقف، ضرب الارض برجله بقوة وقال: "بالرغم من ذلك، فهي تدور". وعندما فاز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب، إزدادت نسبة مبيعات كتبه. لكنه كان عرضة لسكين غادرة اقعدته. واخيرا وليس آخرا، عندما توفي البابا يوحنا بولس الثاني، إنكب العالم على قراءة ما كتب وتحليله.

ما هو المشترك بين هؤلاء؟

مع اختلاف المواقع والاحجام، يمكننا القول انهم كلهم تخطوا الخطوط الحمر. وتخطي الخطوط الحمر، قد يعني اول ما يعني، ان يقوم على نقض ما هو قائم من تقاليد وعادات وثقافة، لانها لم تعد تنفع للمرحلة المقبلة. ولان التمسك بها قد يعني البقاء في الذاكرة التاريخية، مع عدم المشاركة في صنع المستقبل. "أليس الغائب خاسرا دائما؟". فالحضارة عادة، ولاعادة إنتاج نفسها، تحاول خلق المؤسسات، كما تنتج خطابا معينا، ورؤية معينة للعالم. كانت لستالين رؤية معينة للعالم، قامت على القوة الصلبة - دبابة، وطائرة. في المقابل، كان لبابا روما يوحنا بولس الثاني، رؤية مختلفة تدور حول الانسان وسعادته وخلاصه. سقط ستالين، واستمر البابا.

في هذا السياق، ياتي الشهيد سمير قصير. فكتاباته كانت جسر عبور بين ما كان ولم يعد ينفع، وما سيأتي ونحن متخلفون عنه. فهو عروبي لكنه متنور. وهو ديموقراطي، لكنه عروبي. تحسس الشهيد صورة المستقبل الآتي، فأراد اللحاق به وبسرعة، كي لا يفوته القطار. لكنه ابى ركوب القطار الواعد لوحده. فقرر مساعدة كل من رغب اللحاق بالركب من جهة، وإيقاظ من لم يعِ حتى الآن المتغيرات -الزلزال- من جهة ثانية. وعى الشهيد انّ الامة العربية هي هي، موجودة في ديموغرافيتها، جغرافيتها، ثقافتها وحضارتها. لكنه استشعر ان القوالب الايديولوجية التي سيرتها حتى الآن، قد عفا عليها الزمن ولا بد من التغيير. وهو عرف ايضا ان تغيير هذه القوالب، ولانها متجذرة، يتطلب تخطي الخطوط الحمر. هنا تقدم بقلمه ليرسم "خريطة طريق" التغيير. بقلمه اراد تسريع عملية التغيير وتعميمها حتى القاعدة. فهو وان وعى الصورة الكبرى للعالم العربي - في خضم التحولات الجذرية الآتية بسبب التغير الكبير في النظام العالمي - بصورة مجردة، غير قابلة للفهم من قبل الشعوب العربية المسيرة، انكب على تفكيك المجرد ليصبح لغة مفهومة قابلة للهضم، فكانت مقالاته الاخيرة: الاستبداد لحظة انكشافه، الحرس الجديد والسياسة البالية، بيروت ربيع العرب، إلى متظاهر سوري...الخ. اراد الشهيد زرع بذرة العصيان في قلوب الناس ضد الانظمة البالية. اراد تلقيح عقول وقلوب من غاب عنهم معنى الحرية، والقيم الانسانية، فقط بسبب القهر.

في معنى الموت!!!!

عندما يتزامل- من زميل- جنديان في المؤسسة العسكرية لفترة طويلة، يتكون بينهما رابط لا يُعرف مداه وحجمه إلا بعد موت احدهما او استشهاده. بعد الموت، تسقط الحواجز والممنوعات. بعد الموت يسترجع الرفيق الحي كل اللحظات المعيوشة سابقا. فيحللها بطريقة مختلفة، ويفهمها بمقاربة جديدة. وبالتالي، تتغير كل الاستنتاجات السابقة. يشكل الموت مرحلة عبور بين عالم وآخر. وإذا كنا لا نعرف عالم ما بعد الموت،عند موت عزيز ما، فإننا نعرف حتما ان عالم ما قبل الموت قد تغير فعلا. عالمنا تغير لان سمير ذهب. وهو سيتغير بصورة مستمرة لاننا سنُعيد الآن، كلنا، قراءة ما كتب الشهيد، لكن بصورة ومقاربة مختلفتين. فمن الطبيعي إذا ان يتغير وعينا للعالم، وذلك لان القراءة مختلفة. ولان عالم الاحياء قد تغير- بسبب ذهاب الشهيد إلى العالم الآخر. لكن الاكيد، ان المُستقبل سوف يثبت لنا وعي سمير المُسبق له – عبر ما كتب. لذلك يمكننا القول ان استشهاده لم يذهب سدى، لكن شرط ان تبقى جذوة الحرية مشتعلة في اقلام واعية، مُثقفة وحرة - رحم الله سمير الشهيد.

عميد متقاعد - أستاذ جامعي

في وضح النهار

معركة المُحرَّرين: "عون دو بوليفار"

"دخلت سوريا لبنان عام 1976 لإنقاذ المسيحيين الذين كانوا يُذبحون. وكانت المذبحة على وشك ان تنتهي خلال أسبوعين باسم اصلاح النظام السياسي (...). تخيّلوا كيف كان اصلاح النظام السياسي يتطلب ذبح نصف المجتمع. فلو أرادوا أن يُصلحوا كل المجتمع فمن يبقى من المجتمع؟ لن يبقى أحد. وسيكون أساسا دون شعب".

الرئيس السوري بشار الاسد
في مؤتمر المغتربين السوريين
(في 9 تشرين الأول 2004)

... وحتى نصرالله "يعلّق" على خطوط الكهرباء في الضاحية متشبّها بالمحرومين والمسحوقين وحتى الجائعين الذين لا يملكون أحيانا ثمن ربطة خبز، فكيف بفاتورة الكهرباء؟

إلا ان التعليق الذي نتحدث عنه لا يتعمشق شريطه على كابل الكهرباء ولا العمود، بل على الكابل المتصل بقلوب عشرات الألوف من اللبنانيين، مسيحيين ومسلمين – ومسيحيين خصوصا – كانوا يصغون اليه في مهرجان الرويس الانتخابي أول من امس والذي حضّ فيه ناخبي الضاحية و"حزب الله" في الدرجة الاولى، على التصويت للائحة المعارضة في منطقة بعبدا – عاليه التي يدعمها النائب وليد جنبلاط وتضم خليطاً من "لقاء البريستول" و"لقاء عين التينة" (ممثلاً بمرشح "حزب الله")، في تشكيلة يكاد يكون لا مثيل لها.

وقد شرقطت قلوب الجمهور الذي احتشد في المكان، وتجاوبت معها "جماهير" مسمّرة في منازلها تتابع المهرجان عبر الشاشة الصغيرة، حين خاطب نصرالله الناخبين المسيحيين – المتوجسين خوفاً من سلاح "حزب الله" وقد يشطبون لهذه الغاية مرشحه في اللائحة – قائلا انه مع الشيخ بشير الجميل شهيد "لبنان الـ10452 كيلومترا" مربعا شرط ان تضم هذه المساحة مزارع شبعا التي هي لبنانية، والقرى السبع في شمال فلسطين.

والشرقطة الحقيقية ليست في رفع الامين العام لـ"حزب الله" شعار الـ10452 كيلومترا مربعا الذي طالما كان دائما موضع تشكيك من أطراف المعارضة اليسارية - الاسلامية والمواجهة المسلحة لـ"القوات اللبنانية" ولبشير الجميل شخصيا، بسبب تعامله مع اسرائيل واستدراجه، بل دعوة الاسرائيليين في حزيران 1982 بقيادة سفاح القرن أرييل شارون الى اجتياح لبنان، واحتلال بيروت أول عاصمة عربية ترزح تحت النير الاسرائيلي.

وإذ وقف زعيم الحزب الذي حرر لبنان من هذا الاحتلال في 24 ايار 2000 بعدما كان اتهم بشير الجميل بأنه هو الذي "دفع" الاسرائيليين الى تلك المغامرة المدمّرة للسيادة الوطنية وللاستقلال، وحتى للقرار الحر – اذ وقف يعلن انه مع شعار بشير في مطالبته بكل ذرة من تراب لبنان، بما فيها مزارع شبعا والقرى السبع، فانما هو أعاد الاعتبار الى هذا الزعيم الوطني، وليس للمسيحيين فحسب، وصنّفه في خانة "المحَرّرين" الذين دفعوا دمهم فداء الهدف السامي الذي رسموه لأنفسهم. علماً ان عدد شهداء "المقاومة اللبنانية" تجاوز المئة الف، عدا المخطوفين والمفقودين والذين سقطوا منهم برصاص الفلسطينيين وحلفائهم من "القوات المشتركة" التي كانت بقيادة كمال جنبلاط، والد وليد، والأب كان "مَحرّرا" كذلك وقد كلفه ذلك حياته.

وكانت السيدة علياء رياض الصلح قد نشرت في "النهار" الشهر الماضي، تفاصيل لقاء أجراه معها في باريس، الزميل في تلفزيون "ان تي في" جورج صليبي، كيف قرّبت الشيخ بشير الجميل من العروبة، وزرعت في عقله وقلبه فكرة لبنان المستقل ولكن غير المنفصل عن جواره العربي، ولا عن القضايا العربية المشتركة، ولا عن الدور اللبناني الرائد داخل المنظومة العربية والذي كرسه الزعيمان القومي العربي الوحدوي بعقله ودمه رياض الصلح، واللبناني الاستقلالي الشيخ بشارة الخوري وتجسد في الميثاق الوطني الذي لا يزال الاطار الاساسي للعيش المشترك وقد جعله اتفاق الطائف شرطاً لأي شرعية دستورية في لبنان. وقد أسرّت علياء الصلح لمحاورها ان بشير قد صارحها، قبل أيام من استشهاده، انه يخشى على حياته من الاسرائيليين، وليس من الفلسطينيين أو السوريين، بعدما أبى تسليم لبنان لاسرائيل، رافضا توقيع معاهدة سلام مع مناحيم بيغن في اللقاء الشهير بينهما على اليخت الاسرائيلي في نتانيا، والتهديدات التي وجهها اليه بيغن آنذاك.

ولم يعد مستبعداً الأخذ بالنظرية القائلة بأن اسرائيل كانت وراء اغتيال الشيخ بشير الجميل على يد عضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي يعمل لحساب أبو أياد الذي كان مسؤولا عن جهاز الامن المركزي في منظمة "فتح"، بعد سلسلة الاغتيالات التي تعرض لها القادة الفلسطينيون التاريخيون، وفي مقدمهم أبو أياد وأبو جهاد، على أيدي عناصر فلسطينية تابعة لأبو نضال الذي انكشفت علاقته بـ"الموساد" الاسرائيلي، وتمت تصفيته في بغداد بأمر من صدام حسين قبل أشهر قليلة من انهيار حكمه.

وثمة من يذكّر في هذا المجال باغتيال رياض الصلح على يد ساسين الديك العضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي أنكر أن يكون الاغتيال قد تم تنفيذا لأمر حزبي انتقاما لإعدام زعيم الحزب انطون سعاده.

وهناك من يؤكد الدور الاسرائيلي في اغتيال رياض الصلح بلسان نقيب الصحافة السابق زهير عسيران الذي رافق الزعيم رياض الصلح الى الأردن مكلفا من الجامعة العربية لاقناع الملك عبدالله بوجوب انضمام الجيش الهاشمي الى بقية الجيوش التي كانت تخوض معارك ضارية ضد المنظمات الصهيونية في فلسطين، وذلك رفضا لتقسيمها، ولإقامة دولة عنصرية فوق ترابها.

ويجزم عسيران بأن رياض الصلح والملك عبدالله والكونت برنادوت صاحب مشروع التقسيم الذي أطلع عسيران على مسودته سرا، قد اغتيلوا على أيدي عملاء للاستخبارات الصهيونية.

إذاً الارض التي احتلها الاسرائيليون قد حرر السيد حسن نصرالله الجزء الأكبر منها في نظره، ولم يبق قيد الاحتلال سوى الجزء الذي شمله الرئيس الشيخ بشير الجميل في شعاره الـ10452 كيلومترا مربعا والذي اهتدى قبل استشهاده مع رفاقه المئة الف الى ان لبنان لا يحرره سوى أبنائه. وهذا ما آمن به ايضا ميشال عون الذي لا يليق به لقب آخر سوى "المحرّر". وهذا اللقب يعترف له فيه حتى أخصامه السوريون – وإن بسرّهم – وهم يعرفون اكثر من سواهم كم بذل الجيش اللبناني بقيادته من شهداء في المعارك التي وصفها البعض بأنها كانت "جنونية" وأحيانا "انتحارية". وهذان وصفان يطلقهما الاسرائيليون اليوم على مقاومي الاحتلال من الفلسطينيين، وخصوصا الذين يفجرون أنفسهم ويقدمون دماءهم فداء لاستقلال بلدهم واستعادة ترابه الوطني. في حين يصفهم أهلهم بـ"الاستشهاديين".

وسواء أكان كلام نصرالله في مهرجان الرويس للاستهلاك الانتخابي ام لاثارة الشعور الوطني لدى المسيحيين بأن أحد حلفاء "لائحة وحدة الجبل" أي "القوات اللبنانية" التي يقبع قائدها في أظلم السجون ينتظر العفو الذي لا بد آت، هو فصيل وطني ومناضل من أجل تحرير لبنان من كل احتلال - فان كلام نصرالله كان كلام حق ووجد هوى لدى الألوف الذين واكبوه بالحضور وعبر التلفزيون، وقد ارتفع بـ"أمّ المعارك" في بعبدا – عاليه، كما وصفها العماد عون، الى مستوى المنافسة بين فصائل تحرير تحمل في نفسها شرف الدفاع عن الارض وتحرير الشعب من التبعية، والانصياع. وهذا يعطي الانتخابات التي تعرضت للهجوم والمقاطعة، وأطلقت في وجهها أشنع النعوت، من "تعليب" و"محادل" و"بوسطات" و"تسلّط مذهبي" و"بقايا رموز الاحتلال السوري" الخ... هذا يعطيها دورا واقعيا متناسبا مع انتفاضة الاستقلال، وروح انقلاب 14 آذار، بعد تعمّد الانتفاضة بدماء الرئيس الشهيد رفيق الحريري وتضمّخها بطيب روح الرفيق الحبيب سمير قصير ودمائه وجسده الذي تناثر في فضاء الحرية.

ولا تجد المحافل المحلية والاجنبية في وصف معركة العماد ميشال عون سوى "معركة تحرير". اذ هو شارك في مواجهات مع الاسرائيليين والفلسطينيين خلال وجوده في الجنوب. كما قاد "حرب تحرير" ضد ما سماه "الاحتلال السوري" للبنان عسكريا في 1989 و1990، ثم سياسيا بعدما نُفي الى فرنسا لكونه مُحررا وليس مغتصبا للسلطة، بعدما قصف طيران الجيش السوري قصر بعبدا.

وساهم أيضا، والانتشار اللبناني، في استصدار "قانون محاسبة سوريا واستعادة استقلال لبنان" في الكونغرس الاميركي. وشهادته كلفته ملاحقة جزائية في بيروت. وكان له دور رئيسي في اصدار القرار 1559 الذي حرر صيغته فريق متعاون معه في الولايات المتحدة، وذلك قبل ان تنقلب بيروت ضد دمشق بعد التمديد بالقوة للرئيس اميل لحود وحكم التبعية الفاسد، وتحوّل فريق من الموالين بقيادة النائب وليد جنبلاط، وبدعم من الرئيس الشهيد رفيق الحريري، ضد الوجود العسكري والمخابراتي السوري. وقد عجّلت محاولة اغتيال النائب مروان حماده، وبعدها اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري حرقا، في اخراج الجيش السوري ومخابراته تنفيذا للقانون الذي عجنه عون ومهّد له طريق العودة من المنفى الى بيروت محرّرا في 7 ايار.

ولقد كان متوقعا ان يُستقبل عون من جانب المعارضة، وخصوصا النائب وليد جنبلاط، استقبال الابطال المحررين. لكن ذلك لم يحصل لاعتبارات وحسابات، يردها البعض الى ما ينويه عون من محاسبة المرتكبين طوال فترة ما بعد الطائف. فهو يقول ان تحرير الارض والارادة لا يكفيان، بل يجب ازالة الفساد، اي تحرير الدولة ومحاسبة سارقي أموال الشعب ومبدديها. وهذا لعمري هو محور المعركة التي يخوضها عون.

ولقد كان مأمولا ومنطقيا ان يخوض المحرّرون المعركة معا وفي لائحة واحدة تضم "التيار الوطني الحر"، و"حزب الله"، و"القوات اللبنانية" والحزب التقدمي الاشتراكي حامل دم كمال جنبلاط زعيم "القوات المشتركة"، الا ان رياح المصالح قضت بأن يتواجه المحرّرون في حرب عبثية ويتحول عون "تسونامي" مدمّرا، أو فرديناند ماركوس آخر!

نعم انها عبثية. اذ ان لا اعتراف، خصوصا في الوسط المسيحي، سوى بقيادة عون لفضله على "التحرر" من سوريا، وعهدا له بمتابعة المعركة. ويكفي النظر الى الكمية الهائلة من التبرعات الشعبية لمعركته في كل لبنان، مما يذكّر بأيام "قصر الشعب"، حين كانت النساء يتبرعن له بأساورهن ومجوهراتهن، والرجال والشباب وحتى الأطفال بمدخراتهم. علما ان عون مسلّف "حزب الله" في حديث أجرته معه الزميلة "السفير" وقال فيه: "لا مشكلة لدينا مع حزب الله. ونحن نتلاقى معه حول أمور كثيرة. وجماعته لديهم حس اجتماعي مسؤول ينطلق من مبدأ النظافة. وهم يلتفتون الى شعبهم وليس فقط الى المواقع (...) وهم جزء لا يتجزأ من المجتمع. واذا كانت هناك مشكلة فهي بينهم وبين الاميركيين والفرنسيين. هناك مشكلة خارجية للحزب، وليس معي. وانا لست خائفا منه. واذ أتحدث عن حزب الله فاني أتحدث من خلال النصح لا التهديد. فالبعض كبّر الخوف عند الشيعة. وهذا من شأنه خلق ردات فعل سلبية".

وعون هو الوحيد الذي حارب السوريين عسكريا وسياسيا في لبنان، ثم أقر بأن خلافه مع دمشق قد انتهى بعد صدور القرار 1559. وقد وجّه رسالة بهذا المعنى الى الرئيس السوري بشار الاسد عقب صدور القرار يدعوه فيها الى حوار لبناني – سوري من أجل المستقبل، وللتفاهم على برمجة خروج القوات السورية من لبنان "معزّزة مكرّمة". وقد تسنت لنا فرصة الاطلاع من العماد المحرّر على نص الكتاب الذي يطرح أفقا جديدا لعلاقة تنسيق وتفاهم بين بلدين متجاورين ومتداخلة مصالحهما في ما بينهما.

واذا البعض قد أطلق على عون هازئا لقب "الاسكندر" او "نابوليون" في ذروة الحملة عليه، فان عون يشبه سيمون دو بوليفار الذي حرر فنزويلا في القرن التاسع عشر.

تبقى الكلمة الفصل للشعب في الدوائر التي تجرى فيها "أم المعارك"، مذكّرين بكلام الامين العام للأمم المتحدة كوفي أنان بأن الانتخابات لا تعني وحدها استعادة السيادة والاستقلال والقرار، بل يجب ان يثبت الشعب قدرته على التعبير عن السيادة بارادته الحرة التي تتجلى في وحدته وحكم نفسه بنفسه بعيدا عن الانقسامات والمنازعات. فهل يحقق المجلس الجديد ذلك؟

ادمون صعب